من الممارسة الى الاتنوغرافيا : ان كشوفات كريستوفر كولومبس كان لها دور ليس فقط سياسي واقتصادي , وانما متعلق بالاساس بخروج الانا الغربي من قوقعته واصبح في تماس مباشر مع الاخر , كما ان الاحكام القيمية المسبقة للمستكشفين ستسيطر على المخيال الجمعي الغربي لقرون يتلقفها المفكرين من جيل الى جيل , كما فعل الرحالة الاسباني " جوزيف اكوستا " في القرن السادس عشر عندما حاول ربط ملاحظاته عن السكان الاصليين في العالم الجديد ببعض الافكار النظرية , فقد افترض مثلا ان الهنود الحمر نزحوا من اسيا الى امريكا , وبذلك فسر اختلاف حضارتهم عن الاوروبيين انذاك . ميشال دي مونتاني (1532–1592) شخصية اخرى لايمكن لدارس الانتروبولوجا ان يمر عليها مرور الكرام , لقد الف كتاب عنونه بالمقالات وفيه حاول وضع مجموعة من التصنيفات انطلاقا من دراسته لمجموعة من الهنود الحملر اتوا بهم كاسرى , ان الفضل في بروز اعمال مونتاني يعود لسببين : السياق العام التي برزت فيها افكاره , وكذلك لربطه لفكرة الاختلاف الثقافي بفكرة النسبية , ان كل ثقافة لديها منطقها الخاص .

ان السياق العام لاوروبا مابعد النهضة ساهم في تطور الدراسات الاتنوغرافية المرتبطة بالميدان نتيجة الايمان بالتجريب كاساس لاي حقيقة علمية , ان المدرسة التجريبية الانجليزية وعلى راسها فرانسيس بيكون اعادت اكتشاف الطريق الى الحقيقة العلمية واعتبرت الملاحظة والتجربة كاهم اساسين للوصول الى الحقيقة , لقد قلبت الموازين وضربت المنطق الارسطي عرضا لحائط او – على الاقل – وضعته في مكانته الحقيقية , ان التجريب ثورة ابستمولوجية ساهمت في الغوص في دراسات الواقع ومحاولة الوصول الى قوانين , ان المبدا لم يبق حبيس المخابر والعلوم الطبيعية لقد تعدى الى الانسانيات , ان الانسان اصبح في قلب المعادلة التجيريبية .

" العقلانية " اساس اخر قامت عليها العصور الحديثة , ان مفهومها يكمن في انتزاع سلطة الفهم والتاويل من الكنيسة وارجاعها الى الانسان , ان فكلرة الحرام والحلال والحدود لم يعد لها وجود , فقط الانسان هو الغاية , ان جغرافية الدنيا هي التي اصبحت تدفع العلماء الى البحث , وليست جغرافية الاخرة , ان الايمان بالانسان هو الذي انتج في اوروبا ماعرف بحركة الانسنة اوبعصر الانوار في القرن السابع عشر خاصة في فرنسا مع مونتيسكيو بكتابه روح القوانين

والذي ركز فيه على مبدا النسبية الثقافية ,وكذلك جان جاك روسو الناقم على الحضارة ورغم ذلك نظر لاساس سلمي ودائم لدولة قائمة على نظرية العقد الاجتماعي قوامها الحاكم والمحكوم .

من الفكر الاجتماعي الى مجال الاختصاص : ثلاث عوامل ساهمت في بلورة الفكر الاجتماعي الغبي في العصور الحديثة :

الثورات السياسية (الثورة الفرنسية 1789م) : كان لها الفضل في اعادة كرامة الانسان باعادة السلطة السياسية ومركز مشروعيتها اليه , ان الملكية تمثل اقصى تجليات العبودية ان المجموع في خدمة الفرد وعائلته , كما ان الاساس التيوقراطي الذي قامت عليه الملكية في صميمه منافي للاتجاه الانساني , ان مبادئ الجمهورية وفكرة حقوق الانسان كلها نتاج الثورة الفرنسية (اشنقوا اخر ملك بامعاء اخر قسيس)تلخص نظرة الثورة الفرنسية الى العالم .

الثورة الصناعية (نهاية القرن 18 وبداية القرن التاسع عشر) : كان لها تاثيرين فارقين :

الاول : متعلق بافرازاتها على مستوى الاقتصاد بخلق الثروة وزيادة الانتاج , وبروز الحاجة الى مواد اولية والتي ادت الى الحركة الاستعمارية للعوالم الاقل تطورا .

ثانيا: بروز الفكر اليساري المدافع عن الاغلبية الضعيفة نتيجة افرازات الثورة الصناعية , والتي ساهمت في بروز تيارات فكرية حاولت الاجابة على اسئلة التاريخ والحاضر .

انفصال الانتروبولوجيا كممارسة وميلادها كعلم :

مع بدايات القرن التاسع عشر ونتيجة للحركة الرومنسية , والحركة الاستعمارية بدا علماء الغرب يهتموا اكثر فاكثر بالاخر البعيد الموسوم بالبدائي بغرض فهمه ومن ثم السيطرة عليه , ساهمت الجمعيات (كالجمعية الفرنسية ملاحظو الانسان التي تاسست سنة 1800) والمجلات العلمية الانتروبولوجية (المجلة الفرنسية1838 – المجلة الامريكية للانتروبولوجيا1842 – المجلة البريطانية 1843) في اخذ العلم الناشئ مكانته بين العلوم الانسانية الاخرى خاصة وان موضوعه اصبح دراسة المجتمعات الموسومة بالبدائية , كما اصبح الميدان بمثابة مخبر لفهم كينونته , كل

هذا يضاف اليهم تبوء اساتذة لكراسي جامعية على غرار ادوارد تايلور الذي نصب كاول استاذ للانتروبولوجيا في جامعة كامبريدج نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر , بعبارة اخرى لم يكن كاف للانتروبولوجيا لن تكون ذات موضوع ومنهج بل كان لزاما ان تحاط بالرعاية من طرف المؤسسة الرسمية .

وتاريخيا وبمنظور ابستمولوجي نميز بين الانتروبولوجيا الكلاسيكية (نهاية القرن 19 الى غاية الخمسينات من القرن العشرين) موضوعها الرئيس المجتمعات القديمة, والانتروبولوجيا الحديثة التي تبتدى مع فترة الخمسينات من القرن الماضي وموضوعها الرئيس دراسة الانسان في شموليته , انها تبحث عن المعنى وليس الحقيقة , انها" علم الغيرية" بامتياز .